مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 19 العدد02 2023/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

التّصوف الاجتماعي للزّوايا الرّحمانية، دراسة أنثروبولوجية في الزّاوية الطاهيرية،مدينة مسعد، الجزائر

The social Sufism of the Rahmania, an anthropology study in the Zawaya of Tahiriai Massad ciity Algeria

الأمين طيبي *

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر

aminetai@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/09/01 تاريخ القبول: 2023/01/05

ملخص:

تهدف هذه الدّراسة الميدانية إلى إبراز الجوانب السّوسيولوجية للظاهرة الصوفية من خلال مؤسّسة الزّوايا، وهذا بتطبيق المنهج الأنثروبولوجي في الزاوية الطاهيرية الرّحمانية الواقعة بمدينة مسعد ولاية الجلفة الجزائر، وقد توصّلنا إلى نتائج عدّة كان أهمها: أنّ الفعل الصّوفي له أبعاد اجتماعية، وأنّه لا يزال ذا فعّالية قوية في المجتمعات الجزائرية، وهذا ما يظهر جليّا في الوظائف الاجتماعية العديدة التي تقوم بها الزاوية الطاهيرية تجاه المجتمع المحلي والمجتمعات المجاورة، إضافة إلى الوظيفة الأساسية التي أنشئت لأجلها الزوايا الرّحمانية المتمثلة في وظيفة التّنشئة الثقافية

الكلمات الدالة: زاوية، تنشئة، تصوف، دين، طاهيرية

Abstract:

This field study aims to highlight the sociological aspects of Sufism through the Zawiya As the only institution expressing the Sufi phenomenon today, this is by applying the anthropology approach in the Tahirya Zawaiya, This last one is based in Messaad city -Djelfa, We have obtained many social Results, and These results reflect the numerical functions that this institution performs

Keywords: Sufism, Zawiya, Tahirya, anthropology, religion

* **المؤلف المرسل**: الأمين طيبي، **الايميل**: aminetai@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مقدمة :

ممّا لا شك فيه: أنّ كل منهج سليم في التّحليل السّوسيولوجي والأنثروبولوجي للظّواهر الدّينية يجبُ أن ينطلق من معاينة الكتلة الاجتماعية الدّينية في بناها وحياتها الخاصة، إضافة إلى علاقتها التي تنسجها مع العالم الخارجي، ومنه فإنّ الدّراسة الأنثروبولوجية لظاهرة معيّنة هو اهتمام بالسّلوك الإنساني في سياقه الاجتماعي الثّقافي الذي تحدث فيه تلك الظاهرة، وهذا ما عُرف عن المنهج الأنثروبولوجي الذي له القدرة على الخروج عن المجال المادّي وتطرّقه إلى الجانب غير المرئي في الظواهر الاجتماعية، وبذلك يكون أكثر ملاءمة لدراسة ظاهرة التّصوف والتي تنطوي على أبعاد نفسية ووجدانية واجتماعية، خاصة في المجال المعبر عن التصوف ونقصد به الزّوايا التي تعتبر اليوم: المؤسّسة الوحيدة المعبّرة عنه .

إنّ الشّعائر والممارسات الصّوفية تعكسُ رسوما وعلامات لا تعدو أن تكون تعبيرا ظاهريا جزئيا عن الحقيقة الباطنة التي هي أوسع مجالا، وأبعد أفقا، وأعمق أغوارا، ومن ثم كان الاعتماد اعتمادا اساسيا على أداة (الملاحظة بالمعايشة) التي تعتبر نقطة القوة في المنهج الأنثروبولوجي، والتي تعتمد المشاركة الفعلية في أفعال وممارسات المجتمع الصوفي بغية الدّخول في جوّهم الرّوحي وهذا قصد تلمّس أثر هذه الممارسات على الحالة النفسية والاجتماعية للمجتمع الصوفي، إنّ الباحث الأنثروبولوجي ليس ملاحظا للحركات الكبرى على السّطح فحسب، بل إنّه يشتغل من أجل بناء فهم مرتبط بالنّبضات الحقيقية للمجتمع. (صالحي،2010،ص:29).

أولا : محورية الذّكر في الزّاوية الطاهيرية :

1 الذكر الاجتماعي:

ليسَ الذّكر سلوكا يتميز به المتصوفة فقط، بل هو من القُربات والعبادات المشروعة في كل الحالات والتي يتقرّب بها المسلم إلى ربّه، غير أنّ الذكر الجماعي عند المتصوفة يشكّل عمدة السلوك ويشكّل الطريقة الأمثل للارتقاء في المقامات وتقوية الحالات، لذا يقول الشيخ (محمد بن عبد الرّحمن الديسي، ت:1921 م) :" والأصل الثالث الذّكر، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى الله–عز وجل– وعلامة على ولايته، فمن أعطي الذكر فقد أعطى منشور الولاية "(الشطّي،2002،ص:408) ولذلك أسّس الصوفية للذكر قواعد وآداب، ووضعوا الذّكر شعارا لطرقهم الصوفية، وجعلوه وسيلة اجتماعية للتواصل بينهم وبين سلفهم، وقد قال أحد

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أعمدة التّصوف (بهاء الدّين الروّاس،ت: 1870 م) :" إنّ طريقنا يشمل الذّكرين الجلي والخفي، أما الجلي فمع الإخوان في حلق الذكر، وأما الخفي فهو ورد المرء يخلو به مع الله تعالى، ولا ينفع كلاهما بغير الأدب الصّحيح" (خطّار، 2002، ص:359)

والزاوية الرّحمانية كغيرها من الزوايا الصوفية لها نصيب من الذّكر الفردي والجماعي، تداوم عليه يوميا بعد صلاة الفجر وصلاة المغرب، فيفتتح المريد يومه وليله بتلك الأذكار التي تبعث فيه الطمأنينة والرّاحة النفسية وتشعره بالأمان الروحي، وقد تواتر عن شيوخ الزّاوية الطاهيرية السابقين كثرة الذكر، حتى أنّه أثر عن الشيخ (يوسف الطاهيري، ت:1918) أنه لا يغفل عن التّسبيح وقتا من الأوقات، فكان يصلُ السبحة بالسبحة من وقت الصّلاة إلى وقت الصلاة المقبلة، وكان يثبّت في سبحته علامة يعدّ بها عدد السّبحات التي أدّاها كلّ مرة، حتى استقام عنده أن يعرفَ حلول وقت الصّلاة من عدد السّبحات التي أدّاها، (قراش،2020،ص:108) امّا الشّيخ (بلقاسم بن يوسف، ت :1975 م) فقد أثر عنه أنه لم يكن في جيبه الا سبحته وساعته !

ويمكننا أن نصنّف أنواع الذّكر في الزاوية الطاهيرية إلى الذكر المعلوم بعد الصّلوات الخمس، والورد الرحماني اليومي الذي يكون بعد الفجر وبعد المغرب على عادة كثير من الطرق الصّوفية، والذكر الفردي الذي يقوم به الشيخ أو المريديون أثناء أشغالهم وأحوالهم، والذّكر السنوي أو الموسمي الذي يكون في المناسبات السنوية كالمولد أو مناسبة التقاء الطلبة القدامى بشيخهم.

2 الورد الرّحماني في الزّاوية الطّاهيرية وطريقته :

ليسَ (الوردُ الرّحماني) إلاّ رمزا يعبّر به أهل الزاوية عن انتمائهم للطريقة الرحمانية، وهو مجموعة أذكار توارثها الشيوخ الحاليون عن الشيوخ المؤسّسين باعتبارها وسيلة فعالة لتقوية قلب المريد والارتقاء به في سلّم المقامات، إلى أن يصل إلى حضور القلب وغيبته عمّا سوى الله، لذا فالورد الرّحماني غايته تعبّدية، ويكون جماعة بذكر جهري، لأنّه الأنسب في معالجة القلوب، والأنسب للمريدين في تقوية بعضهم ببعض، لأنّ القلوب قاسية مثل الحجر لا يليّنها الا اجتماع الذّكر عليها والجهر به كما يقولُ أرباب أهل التصوف.

وقد توارث شيوخ الزّاوية الطاهيرية المحافظة على الورد الرّحماني، كما توارثوا قراءة الحزب الجماعي أربع أحزاب يوميا، والورد الرحماني يكون بعد الفجر وبعد العصر، ويحضره الشيخ مع المريدين، كما أنّ الورد لا يلزم به طلبة الزاوية كلّهم، لأنّ الزّوايا الرّحمانية لا تشترط دخول الطريقة الرحمانية لقاصدي زواياها للتّعليم وحفظ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

القرآن، لكنها لا تمنع العوام أو غيرهم من حضور الورد مع الشّيخ، فالورد مجلس ذكر والذّكر يكون للنّاس جميعا.

يُقام الورد الرحماني بحضور الشّيخ، والذي غالبا مّا يتوسط الحلقة، لأنه هو من يبدأ الذكر وهو من يختمه، وهو من يقود الذاكرين فيتابعونه في صيغة الذكر وعدده، وبعد أن يجتمع المريدون ويتحلقون حول الشيخ، يبدأُ شيخ الزّاوية الطّاهيرية بقوله :" اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، الصّلاة والسلام عليك يا نبي الله، الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك يا خير خلق الله".

ثم يقول : " فأعلم أنّه لا اله الّا الله"، ويردّد معه المتحلّقون جهرا وجماعة قول " لا إله إلا الله " ثلاثمائة 300 مرة، مع تركيز شديد ومتابعة للشيخ الذي يقود الحلقة، والملاحظ أنّه يقوم أحيانا بتغيير نمط الإلقاء بصيغ متعدّدة، وهذا حتى لا تملّ النفوس، فينشّطها بذلك، لذلك يقول (ابن المنير، ت683 هـ) في كتابه(تحفة السالكين) " وعليهم-أي الذاكرون – مراعاة الوفاق في الأصوات، علوا وخفضا، لأنّ في ذلك نشطة للنفس، ولذة للروح، وراحة للسّر وقهرا للشيطان وفرارا، ولا يكثر أحدهم الالتفات، ولا يعبث بلحيته، ولا يلعب بيده، ولا بشيء من ثيابه، لأنه مجلس الله عز وجل، ولا ينظر بعضهم بعضا، لأنّه مانع من الحضور بل يغمض عينيه" (خطار،2002، ص: 359)

ولترديد قول " لا إله إلا الله " سرّ عجيب، فهي أفضل الذكر عند الصّوفية، والغرض منها ليس إقرار التوحيد فقط، بل غايتها نفي ما سوى الله تعالى أيضا، لذا كان من آثار إدمان الذّكر بهذه المقولة انعكاس الذكر من لسان الذاكر إلى باطنه، فيتمكن فيه فيصلح باطنه وسائر جوارحه، ولذا أُمر المريد وغيره بإكثارها والدّوام عليها .

وبعد تسريع وتيرة الإلقاء حين تمام العدد، يبدؤون في ترديد اسم الجلالة "الله" مائة مرة، والملاحظ أنّ طريقة الترديد للفظ الجلالة مختلف عن الأول وبصيغة محدّدة، قيل أنّها نفس الصيغة التي توارثوها عن الشيوخ الأوائل المؤسسين للطريقة الرحمانية، وقد لاحظنا وجود بعض (الوجد) لدى المريدين، كأن يغمض أحدهم عينيه و يحرك رأسه، وحتى الشيخ يقوم بالحركة يمينا ويسارا وهو جالس، ويحرك رأسه في كل الاتجاهات، وهذا نوع من الوجد المصاحب للذكر، وهو لا يتعدى هذا الذي ذكرنا، والملاحظ في الزاوية الطاهيرية أثناء الذّكر والورد عدم وجود الرقص والتمايل الشديد، وانعدام تلك الممارسات المشاهدة في كثير من الطرق الصوفية الشعبوية، كما لاحظنا غياب العنصر النسوي، إذ لا يوجد اختلاط في الذكر الجهري والورد كما هو ملاحظ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

في زوايا أخرى، بل يقتصر الورد على الشيخ ومريديه، وللمرأة بيتها للعبادة والذكر ولتلقين الأجيال الصاعدة القيم والمعاني الأخلاقية النبيلة.

وبعد أن يكملوا قول " الله " مائة مرة، يضيف الشيخ بصيغة فردية إلى آخر عدد " الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد " "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" ثم يعمّ هدوء قصير تسترجع النفس به قوّتها، ليردّد الجميع بصيغة واحدة " أشهد أن لا اله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله" ثلاث مرّات، وبعدها مباشرة يقولون كنوع من الدعاء : "ثبتنا يا ربي بقولها، وأنفعنا يا ربي بفضلها، واجعلنا من خير أهلها، آمين آمين يا ربّ العالمين، يا من لا مثل له في الذات والصّفات، اغفر لنا ما مضى، واصلح لنا ما ياتي، بجاه محمد، صاحب الشفاعة، آمين آمين ياربّ العالمين، يامن له هذا الملك، وله الملك الباقي، لا تجعل فينا محروم يا الله ولا شقي، بجاه محمد السّابق الاحق آمين آمين يارب العالمين، مولانا مولانا يا سامع دعانا، بجاه محمد، لا تقطع رجانا، بجاه محمد احفظنا وارعانا، آمين آمين آمين يارب العالمين" ثم يقولون :" ربّ احينا سعداء، وأمتنا شهداء، ولا تخالف بنا عن طريقة الهدى، بفضلك يا الله والنبي محمد" ثلاث مرات ، ثم يكملون الورد بقولهم : " آمين آمين يا رب العالمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين"

ثم يعيدون تكرار صيغة الصّلاة : "الصلاة والسلام عليك يا نبي الله، الصّلاة والسلام عليك يا رسول الله، الصّلاة والسلام عليك يا خير خلق الله " ثم يكون آخر الورد قولهم جماعة : "اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمّد واله صلاة أهل السموات والأرضين عليه، واجر يا رب لطفك الخفي في أموري، اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمّد وآله صلاة أهل السموات والأرضين عليه، وأجر يا رب لطفك الخفي في أموري، اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمّد واله صلاة أهل السّماوات والأرضين عليه، وأجر يا رب لطفك الخفي في أموري، والمسلمين والمسلمات، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمدُ لله رب العالمين"، ثم يمكثون ولا يغادرون إلى بإذن وأدب .

هذا فيما يخصّ الورد الرّحماني اليومي، والذي يكون أيضا في المناسبات التي يجتمع فيها المريدون، مثل مناسبة المولد النبوي الشّريف التي يحلولها يشرع المريدون والطلبة في قراءة الأذكار والأوراد والمدائح مع بداية ربيع الأولى إلى ليلة المولد، كما أنّ الورد الرحماني يكون أيضا حين قدوم الطلبة القدامى في مناسبتهم السنوية التي يزورون فيها الشيخ ويرددون معه هذا الورد كنوع من الانتماء والوفاء الذي لازالوا يكنّونه للطريقة رغم بُعدهم

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وانفصالهم عن الزّاوية، وتكون عند الشيخ سي دحمان الشيخ الثاني للزاوية مثلا، بداية من شهر سبتمبر في أول خميس منه، وهذا كنوع من رد الاعتبار وردّ للجميل لهذه الزّاوية ولشيخها.

أمّا فيما يخص المناسبات الاجتماعية والموسمية فالزّاوية لها احتفال بليلة المولد يجتمع فيه المريدون والشّيوخ والمدعوّون من شيوخ وغيرهم، يتخلل هذا الاحتفال مديح نبوي ودروس ومواعظ، وإلقاء للشّعر الشعبي والفصيح، ويكون هذا الحفل بحضور شيخ الزاوية وطلبة القرآن الذين يكرّم متفوقوهم في الحفظ والالتزام، ويختم هذا الحفل بالورد الرّحماني على العادة في الاجتماعات، كما تقام وليمة يُكرم فيها أهلُ الزاوية الضيوف والمريدين والطلّاب، كما أنّ الزاوية تقيم وليمة بمناسبة دخول السنة الهجرية الجديدة ولا يتخلّل هذه المناسبة أي اجتماع للذكر وغيرها، ولكن على عادة أهل الزاوية في التوسع في المأكل والمشرب يوم دخول العام الهجري الجديد .

ثانيا : الوظائف الاجتماعية للزاوية الطاهيرية :

إنّ للطّرق الصوفيّة وظيفة اجتماعيّة تُفهم انطلاقا من تصوّر رسخ في التصوّف الطرُقي، فحواه أنّ الشيخ الصوفي يأخذ على عاتقه مسؤوليّة تلبية حاجات الجماعة، فذلك من مقتضيات الولاية قبل كلّ شيء، ولا يُتاح له ذلك إلاّ إذا تميّز بمجموعة من الصفات أهمها حماية النّاس، وتحمّل أعبائهم، وحلّ مشاكلهم، ورعاية مصالحهم، وإنّما أُنيطت به هذه المهامّ لاعتقادهم بقربه من الله، فالولاية بهذا الاعتبار تقتضي الرعاية والعناية والحماية. (بن الطيب، 2013، ص:34-35)

والفعل الاجتماعي للزاوية يتعدّى إلى الآخرين ولا يقتصر على المريدين والطلبة والزوار فقط، فالزاوية تبسط يديها للضيوف العابرين و القاصدين، وتؤمّن لهم المأكل والمشرب والمبيت، وهذا ديدن الزاوية في عدم ردّ أي قاصد لها ولو كان مبغضا أو شانئا لها، كما أنّ لها تفاعلا اجتماعيا مع المحرومين، بحيث تكفُلهم اجتماعيا وتدمجهم داخل المجتمع، و تقدّم لهم مساعدات مادية ومعنوية، وهي متمثلة لقول (ذي النون المصري، ت :245هـ)، في وصف الصوفي "عون للغريب، أب لليتيم، بَعْلٌ للأرملة، حَفِيٌّ بأهل المسكنة، مَرْجُوٌّ لكلّ كربة"، وكلّ ما ذكره (ذو النون المصري) لاحظناه ولمسناه في الزاوية الطاهيرية، فالزاوية كما قلنا تعين الغريب وعابر السبيل وتوفر له ما يحتاج وتضمن له المبيت ولو أياما طويلة، وهي مأوى اليتيم حين لا يجد من يأويه، فتكرمه وتعينه في دراسته، كما أنها تعين الأرملة وتأخذ مكان بعلها في الإنفاق والاهتمام وتعين أولادها، وللمساكين حظ في الزاوية من إعانات مادية ومعنوية، كما أنّ أهل الزاوية يفكّون كربة كل

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مكروب ومحتاج قدر الاستطاعة، ولا تقتصر المعونات وفعل الخير على المريدين وعلى أهل الزاوية فقط، فهم كما قال (الجنيد، ت :298 هـ) :" كالأرض يطؤها البَرّ والفاجر، وكالسحاب يُظلّ كلّ شيء، وكالمطر يسقي ما ينبت وما لا ينبت"! (الأصفهاني:2001، ص:312)

وقد نبّه الشيخ (عبد الوهاب الشعراني، ت:973 هـ) أنّ من أخلاق الصّوفيّة تقديم إنفاق الدراهم والدّنانير في طعام الجائع وكسوة العريان وقضاء الدّيون التي لا يقدر أصحابها على الوفاء بها على بناء الزوايا والمساجد، (الشّعراني، دت، :244) وهو ما شاهدناه في الزاوية الطاهيرية حيث تأخر إكمال بناء المسجد بها إلى عهد قريب فقط، وكان التركيز على التعليم والإطعام وإعانة المسكين، وهذا له أصل حيث أُثر عن (عبد الله بن المبارك،181 هـ) قوله فيما معناه :" أنّ لقمة في بطن جائع أرجح في الميزان من عمارة مسجد"، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على أنّ أهل الزاوية يحِلّون التضامن في المجتمع المحلَّ اللائق ويُبوّئونه المكانة العليا، وأنّ العبادة النافلة التعامليّة عندهم مقدّمة على العبادة الشعائريّة الفردية، وهذا هو الأصل الذي فقهه أهل التّصوف وغفل عنه الآخرون حتى من المتصوفة أنفسهم ممن اعتكفوا في الزوايا والتكايا، وكانوا في حالة انتظار من يعينهم ومن يطعمهم !

ومنه ندرك مدى المسؤولية التي تحملتها الزاوية الطاهيرية منذ التأسيس حتى في أحلك الظروف وأقساها مثل أعوام الأربعينيات وأعوام المجاعة القاسية التي عاشها المجتمع الجزائري، حيث لم تتخل يوما عن قيمها وعاداتها، وهذا تجسيد لمعان جميلة من مظاهر المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية التي حثّ عليها الإسلام.

1 الإطعام في الزّاوية :

لم تكن الفريضة القرآنية والهدي النّبوي في (إطعام الطعام) للفقراء والمساكين وعابري السبيل مجرد تنظير يدّعيه أهل التصوف فقط، بل قد كان ممارسة في الزوايا القرآنية، هذه الفريضة هي التي تشكّل ثنائية البناء مع الفعل الثقافي المتمثل في تعليم القرآن والعلوم الأخرى، حتى صارت هذه الثنائية الاجتماعية والثقافية سمة لجميع الزوايا مهما كان انتماؤها وطريقتها الرّوحية، بل إنّ بعض الزّوايا تأسست فقط من هذه الوظيفة الاجتماعية، بحيث تأسّست لإطعام الطعام، وتوفير المأوى لعابري السبيل وقاصدي الحج والعمرة عبر العصور المتأخرة، وقد كان لهذه الوظيفة الاجتماعية آثارا عدّة على الأنساق الاجتماعية خاصة السياسية منها، حيث شكّلت مصدر تهديد لسلطة الوقت جرّاء عجزها عن أداء هذه الوظيفة بينما تقوم بها الزوايا على أحسن حال.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

فالزاوية على مرّ التاريخ وفرت هذه الضروريات للناس في أحلك الظروف حين المجاعات وسنين الأوبئة، وهذا ما أكسبها سلطة روحية واجتماعية جعلت الناس يأوون إليها في ظل غياب السلطة ذاك الزمن، وهو ما يفسر انتشار الزوايا في الأرياف والمدن، وهي المقاربة الأنثروبولوجية التي ترى بأن تأسيس الزاوية حال غياب السلطة الفعلية أو اندثارها، وبالتالي تأتي الزاوية لتعوض ذاك الغياب أو الاختفاء بوظائفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ولأن الزّوايا الرحمانية تأسّست لمشروع ثقافي كبير والتي نجحت فيه بشكل كبير، فإنها بالإضافة إلى الدور التعليمي لها أدوار أخرى تتصدّرها وظيفة إطعام الطعام وتوفير المأوى، وهو ما قام به مؤسس الطريقة في أولى زواياه، لأنّ الوظيفة التعليمية يجب أن يكون لها أثرا اجتماعيا على الواقع وإلّا صارت فارغة المحتوى، وخير فعل اجتماعي ينتج عن هذه الوظيفة التربوية والتعليمية هو تطبيق (الفعل الاجتماعي) المتمثل في وظيفة الإطعام التي حثّ عليها القرآن ورغّبت فيه السنة النبوية .

إنّ الدعائم الأساسية لقيام الزّاوية لم تخرج عن ضَرورات الحياة الفعلية، فالزاوية ظلت منذ ظهورها مركزا لإطعام الطعام وحاجة في أوقات المجاعة والقحط أو حتى عند الخصاصة العادية، لذا أضحى الإطعام ملازما لها وميزة عامة لحياة روادها وسلوكا صوفيا يحتذي به المريد بعد شيخه، حتى بلغ الأمر درجة اعتبر فيها الإطعام رمزا لكرامة صاحبها، تمنحه سلطة رمزية بسبب كثرة المستفيدين منه وقلة المتوفر من الطعام، خصوصا في مجتمعات عانت من النقص في الإنتاج وتوالي الأزمات. (المازوني،2011، ص: 03)

والمستنطق لتاريخ الزاوية الشفهي يدرك حقيقة بأنّ هذا الفعل الاجتماعي لازم الزاوية الطاهيرية منذ عهد التأسيس، فقد كان (الشيخ الطاهر، ت:1891م) ينفق على البيوت المعوزّة التي ترافقه في حلّه وترحاله، وكان لتلك العوائل أن لا تقلق من انعدام المأكل والمشرب طالما هم في حماية الزاوية، وهكذا فعل(الشيخ يوسف، ت:1918) بعد وفاة أخيه فقد كان يطعم الطعام ويكرم الوافدين حتّى لقّب بنائل الصغير لكرمه وجوده، وحتى صار بيته الملقب ببيت سيدي يوسف، رمزا للعطاء والجود، وقد يؤثر أهل الزّاوية على أنفسهم الطعام في أحلك الظروف، وهذا ما تجلّى في عام المجاعة سنة 1945م حيث كان الشّيخ المختار يأوي إليه عشر خيام يلزمون رفقته حيثما حلّ، ويتولى رعايتهم وإعالتهم، ولم يتوانَ لحظة في إقامة مواسم الزّاوية ومهامها سواء مع طلبته او مع عامة مريديها وزوارها (قراش،2020، ص: 171)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ولازال هذا ديدن الزاوية لحدّ اليوم، فما من قاصد لها أو عابر إلا ويجد المأكل والمشرب والمبيت، سواء في الأيام العادية أو أيام المواسم من مولد وغيرها، حيث تتكفل الزاوية بإطعام كل الزوار ولو بلغوا المئات، وقد تقوم زاوية من الزوايا بزيارة الزاوية الطاهيرية فيتكفل أهلها بإطعامهم وإكرامهم أحسن الكرم، ولا يقوم الإكرام على من يكون مريدا أو زائرا فقط، بل إن الزاوية تقوم بإكرام وإطعام عابري السبيل الذين ضاقت بهم السبل، فتقدم لهم المعونة المادية والمعنوية .

ولكي يقوم الطلبة القاصدون بعملية التعليم والحفظ على أحسن وجه، بحيث لا يحملون همّ المأكل والمشرب والمبيت، لذا كان دأب الزاوية الطاهيرية منذ التّأسيس إطعامهم وإكرامهم وتوفير المأوى، كما أنّ أهل الشيخ هم الذين يقومون بالطهي وتحضير الأكل للطلبة والزوار !

والزاوية الطاهيرية تقدم ثلاث وجبات قهوة الصباح مع الخبز، وتكون في الغالب السابعة والنصف صباحا، ثم وجبة الغداء والتي تكون قبل الظهر، ثم وجبة العشاء والتي تكون بعد صلاة المغرب .

قهوة الصباح تتمثل في القهوة والخبز على عادة أهل تلك المنطقة حيث يستهلكون القهوة بشكل عجيب، حيث تكون حاضرة في كل الأوقات وترمز إلى فضيلة الكرم بحيث تكون أول ما يقدّم للضيف ولو نزل منتصف الليل، ثم تأتي فترة الغداء والتي تكون غالبا من (شربة) شعير مع خبز تقليدي أو خبز يشترى، أو يكون في بعض الأحيان عبارة عن كسكس قمح ليّن يقدم مع بعض المرقة، والعشاء على نحو الغدآء، والاقتصار على هذا الأكل ربما يعود لسهولة طهيه مقارنة بالأطباق الأخرى، لأنّ التحضير اليومي لوجبتين ولأكثر من مائة طالب ليس بالأمر السّهل والهين .

هذه هي الوجبات التي تقدّم للطلبة في الزاوية ويأكل منها الجميع دون استثناء بحيث لا يُستأثر أحدٌ بأكل غير هذا، إلّا الضيوف الذين يحضّر لهم أكل خاص كونهم ضيوف الشيخ، بل حتى أبناء الشيخ يأكلون مع الطلبة هذا الأكل البسيط .

والزّاوية لا تسمح بإقامة وجبات داخل الغرف للطلبة إلّا فيما يخص تحضير القهوة أو الشّاي، بل إنّ بعض الطلبة يأكلون خلسة بعض الطعام الذي يحضرونه معهم، وهذا تأدّبا ومراعاة لمشاعر الطلبة الآخرين، وحتّ أن مغادرة الطلبة للزاوية دون تصريح أمر ممنوع، وهذا تفاديا للفوضى ولأجل فرض النظام العام بين الطلبة، وهو ما يربّي لديهم فضيلة القناعة وينمّي فيهم فضيلة الصّبر أيضا .

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

2 وظيفة التّحكيم والصّلح:

من خلال استقرائنا لتاريخ الزاوية ودورها الأساسي داخل مجتمع الزاوية ومحيطها نجد أن من بين أهم الوظائف الاجتماعية التي اضطلعت بها هي وظيفة التحكيم والصلح، سواء بين القبائل أو بين الأسر والأفراد، وقد كان لمصداقية الزاوية وزهد شيوخها الأثر البالغ في محيطها، فكسبت بذلك مصداقية أخلاقية بوأتها مكانة التحكيم والإصلاح بين النّاس، ولا أدل من ذلك على أنّ الناس من مختلف توجهاتهم كانوا يقبلون بحكم الشيوخ، وهو ما أثر عن الشيخ الطاهر والشيخ يوسف وباقي الشيوخ، حيث كانت لهم الكلمة الأخيرة حتى في تحديد الغرامات وتحديد مواقيت الصلاة ودخول رمضان والعيدين، بل إنّ الزاوية شكّلت عامل وفاق بين الأهالي وإرادة المستعمر التي كانت الزاوية غصّة في حلقها، وهو ما رأيناه في عهد الشيخ يوسف والشيخ المختار والشيخ عبد الرحمن ومعارضتهم للتجنيد والغرامات والضرائب المفروضة على الناس ووقوفهم في صف المظلومين والمكلومين .

لم ينحصر دور (الشيوخ) التّحكيمي على الدّوام في أمور السياسية وقضاياها أو في النزاعات الضيقة، بل شمل كذلك أمور العلم والفقه وأحيانا العلوم الشرعية، على قلة علم الكثير من (الشيوخ)، ولم يكن هذا الأمر سبيلا للطعن في دورهم، ولم يكن للشيوخ أي منافع مادية مترتبة على قضايا الصلح بين النّاس، فقد كان هذا من باب التأليف بين النّاس والمحافظة على تماسكم الاجتماعي، ولا زالت هذه الوظيفة فعّالة إلى اليوم، حيث يقوم رجال الحلّ والعقد من القبائل المجاورة بقصد الزّاوية وتقديمهم مبادرات من أجل عقد جلسات الصلح خاصة وأنّ تلك المناطق تكثر فيها النزاعات حول الأراضي خاصة موسم الحرث، وبالتالي فإنّ من تجليّات المسؤولية الاجتماعية للمؤسسة الصوفية هذا الدور المهمّ الذي نهض به شيوخ الطرق الصوفية، وهو دور الحَكَم الوسيط والمصلح بين الناس والموفّق بين المتخاصمين والفيصل في نزاعاتهم .

3 الزّاوية الطاهيرية والفعل الجهادي :

لعلّ سائلا يسأل : لماذا التطرق إلى صفحة الجهاد والمقاومة ونحن بصدد التكلم عن الممارسات الاجتماعية للزاوية ؟ والجواب على هذا أنّ الزّاوية المؤسسة المعبرة عن التصوف الحقيقي تبرهن عن صدق انتمائها حين تعرّضها للشدائد والمحن، ومواجهتها المغريات المادية والمالية، وحين تقف مع الحق متجاهلة تلك الإغراءات والشدائد فهي بحق معبرة عن التصوف الحقيقي، وقد سئل أحد الشّيوخ عن أهل التّصوف الحقيقي فأجاب: بأنهم أهل الجهاد، فهؤلاء الذين باعوا أنفسهم رخيصة في سبيل الله هم أولى النّاس بهذا اللقب، لأنّ مقارعة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الأعداء والزهد في الدنيا والأولاد، وهجرة الأوطان دليل ملموس على صدق التّوجه إلى الله، ودليل على معرفة الغرض الذي خُلق لأجله الإنسان، لذا فالمتدين الذي لم يختبر تدينه الحق أمام مثل هذه الامتحانات والابتلاءات يعتبر تدينه مشبوها، وقد عبّر أهل التّصوف بأنّ الولي الحقيقي لله هو الذي يعيش في بيئة متقلبة مليئة بالشهوات ودواعيها من مال وجاه ونساء وشهرة وغير ذلك، ثم يصرف نفسه عن كل هذا ويقبل على الله، أمّا الذي هو في بيئة مسالمة لا شهوة فيها ولا ابتلاء فيها فإنّ له أسباب تعينه على التدين الصحيح، وقد نجح الصوفية في أوّل امتحان منذ بداية نشأتهم في ابتلاءات كثيرة، ووقفوا مع الضعفاء والمسلمين في ردّهم وصدّهم لعدوان الأمم الأخرى !

إنّ القول بأنّ أهل التّصوف (سلبيون) تركوا جهاد الكفار وانغلقوا على أنفسهم في الزّوايا المظلمة واستسلموا للقدر الكوني وخضعوا للاستعمار، لأنه إرادة إلهية لا يجب أن تقاوم –كما يروّج الكثيرون– هو قولٌ تدحره وقائع التّاريخ الإسلامي المدوّن والصّحيح، والمحزن اليوم أنّ المروّجون لهذه الأقاويل هم أكاديميون، بحيث لم يقوموا بأي جهد علمي قصد التّحقق من هذه الفرضية التي أخذوها جاهزة وأصبحت من قبيل الحقيقة العلمية المطلقة، معتمدين على أقوال الخصوم الإيديولوجيين من المذاهب السلفية و والمستشرقين، منطلقين في حكمهم من قناعات شخصية والتي كان من المفروض وضعها جانبا لأنّ الموضوعية شرط أساس في البحث العلمي الجاد، ضف إلى هذا (حكم التعميم) الذي يواجه تساؤلا عن مدى مصداقيته في ظلّ اعتماد كثير من البحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية على أبحاث ضيقة ومحددة، أو على وقائع معينة وقعت داخل دائرة زمنية ومكانية محدودة، وبالتّالي فإنّ نتائج هذه الأبحاث أو الوقائع التي كانت على مجتمع مصغّر لا يمكن أن تُعتبر أنموذجا للمجتمع العام أو الكلّي.

ويمكننا هنا أن نُدرك مدى تأثير هذا الحكم الذي تأثّر به هؤلاء الأكاديميون أو الباحثون والذي كان منطلقه تلك الخلفيات الأيديولوجية والدّوافع الكولونيالية التي ركّزت في دراساتها على الجانب الدّيني وخاصة الظاهرة الصوفية، لأنها اعتبرت إلى زمن قريب خاصية ثقافية يمتاز بها المغرب الإسلامي والتي ظلت حتى سنوات الخمسينات تغض الطرف عن كل ما يمت إلى الاسلام بصلة لأنها كانت منهمكة في البحث عمّا هو وثني. (منديب،2006: ص:129)

وبالتالي لا نرى في هاته الدراسات –التي لازالت ذات تأثير كبير – الممارسات الإسلامية الصحيحة من صلاة وزكاة وحج وجهاد وغيرها، وكأنّ الممارسات الدّينية في تلك الحقبة انحصرت في الوعْدات وحفلات

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الرّقص وإنارة الشّموع وتقديس الأولياء والتي كان لها دلالة عميقة كما يرى (مونتي)، والتي تستند في الأساس على الأدوار التّحرّرية التي لعبها هؤلاء لفائدة جماعاتهم وحمايتها من كل المخاطر الداخلية والخارجية التي تهدّدها، فقد شكّل الجهاد ضد العدو في رأيه مصدر إلهام بالنسبة لعدد من الأشخاص الذين تحوّلوا إلى أولياء في نظر الناس بسبب تزعمهم لحركة المقاومة وبفضل حماسهم الدّيني الزائد. (منديب،2006، ص: 34)

ولعلّ سائلا يتساءل أين موقع المقاومات الشرسة التي قام بها رجال التّصوف في تلك الأزمنة، وأين موقعها من تلك الدّراسات التي غضت الطرف عمدا كي توهم النّاس أنّ ذلك الزمن زمن خرافة وتخلّف اجتماعي، والواقع كل الواقع وهذا بحكم ما دوّنه الضباط أو الأنثروبولوجيون أو بحكم ما دوّن من تاريخ يشهد بأنّ أهل التّصوف منذ القرون الأولى هم أهل جهاد نفس وأهل جهاد عدوّ، ولعلّ الصّفحات تطول لو سردنا كثيرا من الأسماء التي لعبت دورا بارزا في الجهاد والرباط والمقاومة بالنفس والمال والأهل، ولسنا نتكلم هنا على الحقب الغابرة التي كان الزهاد والمتصوفة أبطالها، بل إنّنا نحيل هؤلاء الذين لم يرو في التصوف غير ما ذكرنا إلى القرن الماضي فقط، مما توفّرت مراجعه الموثقة وبشهادة الأعداء في مصر والسودان والمغرب وتونس وليبيا والجزائر وتونس وبلاد إفريقية التي فتحها القادريون وغيرها ، مما يدلّل على نتيجة واحدة هي أنّ الصوفيون برباطاتهم حفظوا الأوطان وحفظوا الشّريعة لأزمان كثيرة، فكانت زواياهم رباط علم وثغر حراسة وجهاد .

ولا ريب فإنّ هؤلاء بقصد كانوا ضحية للصّورة النمطيةالسائدة عن التصوف، والتي وصفها أحدهم ب"البناء المشوه" والذي جرى اختراعه في دراسات الاستشراق الأوروبي إبّان القرن الثامن عشر وكان بوابة للاستعمار الفعلي .

ولسنا هنا بصدد الردّ عن منكري هذا الفضل الذي اختص به الصوفية مند زمن بعيد سحيق، بل إنّنا نحيل هؤلاء إلى ما كتب حول الجهاد الذي تبنته الطريقة الرحمانية في القرن التاسع عشر مثلا، والذي يعتبر أيقونة تاريخية يجب أن تدرّس عن المقاومة والجهاد عند الصوفية، والذي يريد مزيدا من التفاصيل ما عليه إلا الرجوع إلى مؤلفات شيخ المؤرخين (أبو القاسم سعد الله،ت:2013)، والذي تكلم عن كثير منها، بل حتى أنّ الأمير عبد القادر تأثّر بالرّحمانية وقد تلقى منهم السند والمعونة، كما ننوه هنا إلى دور الشيوخ الرحمانيين في إرشاد الناس وحثهم على الجهاد، وهو ما قام به (الشيخ المختار الجلالي) في بسكرة ونواحيها، وقد ".. لاحظ الخبراء الفرنسيون أن زعماء حركة الجهاد التي تولت محاربتهم كانوا ينْبَثِقُون من المعاقل الدينية المنتشرة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

عبر الوطن، ونعني بها الزوايا والمعاهد الإسلامية التي كانت منذ قرون تَعْتَني بالجهاد عند الخطر، وتعتني بالعلم والتصوف عند السلم.."(سعد الله،2005، ص: 17)، فكان لابد من خطّة بديلة عن المقاومة، بأن اخترق الاستعمار الزوايا وخلق بعض الطرق المثبطة.

والحق أنّ هذا الحكم القاسي من شيخ المؤرخين يجعل الطرق الصوفية وكل الزوايا في حكم واحد ، بيد أنّ الكثير منها لم يدجن ولم يستسلم وإن عانى من الاضطهاد والتشريد، ومن بين هذه الزوايا الزاوية الطاهيرية التي بدأت الجهاد تعليما ثم مارسته بندقية وبارودا، وقدمت في سبيل الله كثيرا من تلامذتها وفي مقدّمتهم شيخها (عبد الرحمن الطاهيري) الذي أعدم في سجن سركاجي سنة 1931م .

وقبل الشيخ (عبد الرحمن بن الطاهر) كان وقوف(الشّيخ يوسف بن محمد) ضد التجنيد الإجباري الذي فرض على الجزائريين ومعارضته للباشا أغا (محمد بن بلقاسم) حين أراد التجنيد الإجباري قبل الحرب العالمية الاولى ووقف سدّا منيعا أمام جبروته، فكان أن أنقذ مئات الشباب من هذه الحرب التي لا ناقة للجزائريين فيها ولا جمل ، ويمكن أن نلخص في النقاط التالية أهمّ المواقف الجهادية للشيخ عبد الرحمن الطاهيري :

1. معارضته سياسة مصادرة الأراضي و قانون الضرائب لسنة 1912م .
2. عارض قانون التجنيد الإجباري الذي أصدرته فرنسا سنة 1914 ونظم مقاومة عسكرية بجنوب صحراء مسعد ، واشتبك مع مفرزة للجيش الفرنسي في منطقة (طزيوة) قرب تقرت .
3. وفي سنة 1916م اشتبك أتباع الشيخ عبد الرحمان مع القوات الفرنسية في مكان يدعى "ضاية القويسي" ثم في المعلبة بالجلفة، ليلقي عليه القبض مرة ثانية بعد معركتين ويُنفى إلى مدينة وجدة بالمغرب مدة عامين، وخلال هذه الفترة ألقي القبض على اثني عشر رجلا من أتباعه منهم ولده عمر، ومن المنفى كان يحثّ أتباعه على مواصلة الجهاد حتى عاد للوطن سنة 1919م ليتولى شؤون الزاوية مؤقتا في غياب عمه يوسف الطاهيري.
4. وبعد الإفراج عنه، أقام الشيخ مؤتمرا علميا سنة 1920م بمنطقة بريش بمسعد، ضمّ فطاحل ومثقفين منهم الشيخ ابراهيم اطفيش، تحت عنوان(ثلاث ليال في الصحراء)، وقد كرّس المؤتمر توحيد صفوف الجزائريين ودعا لانتفاضة مغاربية ضد العدو الفرنسي والإيطالي، فراسل الشّيخين السنوسي وعمر المختار وبعث إليهما الشّيخ(المبروك بن الهبال الاخضري) لتنظيم المقاومة.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

5. للقضاء على مقاومة سي عبد الرحمان بن الطاهر قامت السلطات الفرنسية بنفيه إلى مدينة و جدة المغربية ، و ألقت القبض اثني عشر (12) من اتباعه وزجت بهم في سجن (تعضميت) الجلفة .
6. الدعوة إلى ثورة مغاربية : بعد الحرب العالمية الاولى عاد سي عبد الرحمان إلى الزاوية الطاهيرية، و أدرك ان الاستعمار الفرنسي المتجذّر في المغرب العربي لا يمكن التغلب عليه الا بمقاومة مغاربية موحّدة ، لهذا الهدف راسل الملك السنوسي بليبيا والزعيم عبد الكريم الخطابي بالمغرب ، و عند اطلاع الإدارة الفرنسية عن هذا المشروع الجهادي المغاربي لدى الشيخ سي عبد الرحمان فرضت عليه الإقامة الجبرية التي لم تدم طويلا نظرا لمكانته بين الناس وخشية أن تثور كل المنطقة في وجه الاستعمار
7. أعاد الشيخ سي عبد الرحمان بن الطاهر تشكيل فرقة مسلحة تجوب صحراء مسعد في تحدي جديد للوجود الفرنسي ، ليشتبك مع قافلة عسكرية فرنسية سنة 1923 بمنطقة (طزيوة) . للمرة الثانية . وقتل في تلك المواجهة جنديا فرنسيا، من هنا يقرر العسكريون الفرنسيون التخلص من الشيخ عبد الرحمان بن الطاهر ومن مقاومته المسلحة التي أرقتهم طوال الثلث الاول من القرن العشرين، ليتفق العسكريون و السياسيون على إعدامه في 13 جويلية 1931م .

إنّ مشاركة الزاوية الطاهيرية في الثورة تستدعي عملا لجمع الشهادات الشفهية وتجميع الوثائق وتحقيقها ونشرها ليعلم النّاس ما عانته الزاوية وأهلها من الاستدمار، كما كان للزاوية وشيخها المختار علاقة وطيدة بجمعية العلماء المسلمين عبر مراسلات وغيرها، والتي تكللت بلقاء الشيخ (المختار بن يوسف) بمسعد 1948م عضوين من جمعية العلماء هما: (حمّة حماني) و(نعيم النعيمي) (قراش، 2020، ص:177) ليتأسس بعد هذا اللقاء شعبة الجمعية ومنحت الرئاسة الشرفية لشيخ الزاوية الطاهيرية الشيخ المختار نظير ما قدّمه من دعم مادي ومعنوي ونظير انفتاحه على نشاطات الجمعية، وفي مقابل هذه النشاطات التي تكفلت بها الزاوية شنّ الجيش الفرنسي هجمات عديدة على الزاوية وعلى مقراتها المنتشرة، كان أهمها هجوم 1957م على مقر الزاوية بحوش السمارة وحصاره لأيام، ثم إحراق المكتبة وما احتوته من رسائل ووثائق مهمّة بعد أن أخذت بعضها، كما كان الاعتقال والحبس من نصيب الشيوخ أيضا، فقد سجن واعتقل الشيخ (بلقاسم بن يوسف) ثلاث مرات بسجن الأغواط والجلفة، كما اعتقل شيخ الزاوية الشيخ (بلخير بن يوسف) وأودع سجن الجلفة سنة 1961 م ، وخلال هذه الفترة –أي قبيل الاستقلال– كان للشيخ بلقاسم نشاط قوي واتصال بالقادة الثوريين خاصة قائد الولاية السادسة زيان بن عاشور، وقد كان للشيخ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

بلقاسم مهمّة خطيرة منها تنظيم العمل السري وإشرافه على المراسلات والاجتماعات وهو ما جعله تحت أعين المراقبة التامة، الأمر الذي انتهى بسجنه واعتقاله مرات عديدة

ثالثا : خصائص ومميّزات الزاوية الطاهيرية :

بعد مكوثنا في الزاوية الطاهيرية وتطبيقنا لأدوات المنهج الأنثروبولوجي من ملاحظة مباشرة وغير مباشرة، إضافة إلى المقابلات التي كانت مع الشيوخ والطلبة، يمكننا القول بأنّ الزاوية الطاهيرية تتميز بخصائص ومميزات جعلتها مستمرة في مسيرتها الحافلة بالعطاءات، ولكي تتضح المرجعية الشرعية للزاوية الطاهيرية كان يكفينا القول أن الزوايا الرحمانية العلمية هي أقل الزوايا تعرضا للشوائب العقدية والبدعية المخالفة لأصول التصوف الجنيدي، فليس فيها ذلك التصوف الفلكلوري القائم على المبالغة في الطقوس، ولم يؤثر عن زاوية من تلك الزوايا أنها كانت ملجأ للخرافة والشعوذة كما وقع لبعض الزوايا التي انحدرت إلى تلك الهاوية . (طيبي،2010 ص: 254)

ويمكننا أن نلخّص في نقاط أهم ما لاحظناه في الزاوية الطاهيرية على شكل نقاط وهذا تفاديا للإطالة :

- الجمعُ بين الجانب الصوفي والجانب العلمي الفقهي، حيث برز فيها شخصيات ونماذج جمعت بين التّصوف والصّلاح والفقه والتّدريس، وتخرّج عشرات الحفّاظ سنويا الذين ينتشرون في المناطق المجاورة لإكمال مهمتهم أو الذهاب إلى الزوايا العريقة مثل الهامل لمواصلة التعلّم والدّراسة .
- من خلال اجتماعنا ببعض المجاهدين واطلاعنا على بعض الوثائق تبين لنا قوة الجمع بين الجانب الصوفي والجانب الجهادي، حيث كان هناك شيوخ ومريدون مجاهدون ومقاومون للمحتل، وهو ما أكسب الزاوية شرعية وقبولا واسعا لدى المجتمع .
- الفعل الاجتماعي والثقافي لم يتوقف رغم الظروف القاسية للزاوية، سواء كانت في الحضر أو في الترحال، حيث الزاوية المتنقلة على الإبل والبغال .
- التّصوف الاجتماعي بدا بارزا جدا عبر نشاطات اجتماعية وأدوار فعلية داخل المجتمع وخارجه، وهذا ظهر جليا في الصلح بين المتخاصمين والذهاب إلى أمكنة التنازع وحلّها و المساهمة في عمليات التكافل الاجتماعي بشتى أنواعه .
- الزّاوية يقصدها المريدون ويقصدها طالبوا العلم و القرآن، كما يقصدها الزوار، فهي زاوية منفتحة وغير منغلقة على نفسها، وهذا دليل على وضوح نهجها السلوكي والتعليمي.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

- عدم وجود أي ممارسات و(طقوس) خارجة عن النطاق الشرعي، فلا يوجد هناك حلقات رقص ولا غناء ولا توجد هناك شعوذة ولا اختلاط بين الرجال والنّساء.
- بساطة الشّكل الهرمي والتنظيمي والبنائي في الزاوية .
- الشيخ يقوم بأشغاله واشغال عائلته ولا يكلف أحدا من الطلبة بفعل ذلك طالما أن الأمر شخصي.
- وجدنا أنّ قواعد للنظام مطبقة بصرامة، وهذا ما كان سببا في الالتزام الشديد داخل الزاوية وخارجها مع التقيد المنضبط بالبرنامج اليومي، وهو يختلف باختلاف الصيف والشتاء .
- التقديس الموجّه للشيخ ليس بمعناه الأسطوري المعروف، ولكنه نوع من التبجيل والاحترام اللذان يحمله الطلبة والمريدون لشيخهم، وبالتالي فالعلاقة بسيطة جدا بين الطلبة والشيخ، والشيخ متواضع جدا ويمكن للجميع الوصول إليه.
- مزاولة النشاط التّعليمي أثناء القيام بعمليات الحرث والحصاد وغيرها في الأراضي التابعة للزّاوية (الزاوية المتنقلة)
- الزاوية ليس لها هبات منظمة من الدولة، ولكنها تقتصر على ما لديها وعلى تبرعات المحسنين.

رابعا : الزاوية وتجلّياتها سوسيولوجيا :

كون دراستنا هذه منطلقة من مجالها السوسيولوجي والأنثربولوجي فيمكننا أن نلخص ما رأيناه من نتائج سوسيولوجية في النقاط التالية :

- الزاوية مثال محكم عن (التمثيل الاجتماعي للدّين): حيث المعتقدات والأفكار والقيم والرموز المشتركة والتي تشكّل طرق التفكير الخاصة بأهل الزاوية، كما تشكّل مصدر شعورهم الجمعي والفردي
- الزاوية مثال عن تحقيق الوحدة الاجتماعية : ويتجلى هذا في الوظائف التي تقوم بها الزاوية من نشر للأفكار والقيم التي تحقق الوحدة بين أفراد المجتمع وطبقاته المختلفة، وهي وظيفة يشهد لها واقع الزوايا التي تضم جميع أصناف الناس مهما اختلفت مراتبهم أو لغاتهم أو وظائفهم أو ألوانهم، بل حتى الحدود الجغرافية لم تكن تحول بينهم وبين إقامة هذه العلاقات الاجتماعية القوية، فالعلاقة التي تربط المريد الصوفي بشيخه وبطريقته أكبر من العلاقة التي تربطه بوطنه وقومه.
- الزاوية الطاهيرية مكان انصهار الفوارق الاجتماعية :حيث لا فوارق دنيوية ولا فوارق عرقية، الكل سواسية تحت عمامة الشيخ، والكل له صفة (طالب)، ولو وجود لطالب درجة أولى أو أخيرة، الكل

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يأكل أكلا واحدا ويلبس لباسا واحدا، وكل الطلبة لهم غرف متشابهة .

- الزّاوية مجال للتكافل والتضامن الاجتماعي: فالزاوية غير منغلقة على نفسها، بل لها أفعال اجتماعية متعدية على الغير .
- لازال مفهوم السلطة متمثلا في الزاوية : كمفهوم السلطة الروحية للشيخ، غير أنها اليوم صارت أقلّ حدّة مما كانت عليه، وصار الاعتقاد في الشيخ مقتصرا على مجال محددة في ظلّ التطور الاجتماعي الرهيب مقارنة بما سبق حيث كانت سلطة الشيخ لها مجال واسع وتشمل العوام والقبائل المجاورة، أما اليوم فهي تقتصر على أهل الزاوية فقط والمريدين، أمّا غيرهم فلا يعتبرون بأي سلطة من الشيخ سوى احترامه وتقديره نظير المجهودات التي يقدّمها للقرآن .
- الزاوية مثال عن البناء الاجتماعي المتكامل: من خلال نظمه وتراتبيته الاجتماعية وتنظيمها الاجتماعي، كما أنّنا لاحظنا أنه لا وجود للعشوائية في العمل أو التسيير، كل شيء يسير وفق ما خطط له، ولاوجود لأنشطة غير منظمة أو غير مصرّح بها من طرف الشيخ .
- الزّاوية الطاهيرية نسق ديني وثقافي في مواجهة الانحرافات الاجتماعية: وهذا ما لمسناه من ذلك التقديس للزاوية من طرف المجتمع الملاحظ، حيث تمثل حائط صدّ لكل انحراف في السلوكيات والتّصرفات والتوجهات والمعتقدات والأنماط التي تكسر قواعد وأعراف وأخلاقيات وتوقعات المجتمع المحلّي، فللشيخ سُلطته الروحية، وللزّاوية مجالها المقدّس.
- الزاوية مصدر من مصادر التّغير الثقافي والاجتماعي : فهي تقوم بنشاط ثقافي كبير وتشكّل للطلبة المقبلين رأسمال ثقافي يساعدهم في الحياة ويكسبهم مكانة مهمّة داخل المجتمع، كما أنها مصدر من مصادر التغيير الاجتماعي، حيث أنّ الحياة تتألّف من تغيرات اجتماعية لا تتوقف، ومنه فتغيّر الفرد ومن ثم المجتمع لابد أن يرتكز على ثلاث أنساق يراها علماء الاجتماع ضرورية لتحقيق الفاعلية المطلوبة للمجتمع: النّسق الإيماني أو العقدي، والنسق العبادي، والنسق الأخلاقي ، وكلّ هذه الأنساق متمثلة في الزاوية الطاهيرية .
- الزاوية ميدان للتّواصل الاجتماعي: حيث التواصل بين المريدين وشيوخهم، وتواصل شيوخ الزاوية مع الشّيوخ الرحمانيين الآخرين، وكان هذا عادة مستمرة حيث تواصل الشّيخ الطاهر بالشيخ المختار، وتواصل الشيخ يوسف مع الشيخ المختار والشيخ عبد الرحمن النعاس، وتواصل الشيخ عبد الرحمن مع

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

تواصل الشيخ محمد بن بلقاسم، كما أنّ الطلاب القدامى لا يقطعون التواصل مع الشيخ ومع أهل الزاوية ويقومون بزيارة موسمية كل سنة .

- مفهوم (الأمّة) بمفهومه الواسع وتجسده في مجتمع الزاوية : حيث لاحظنا ذلك التضامن والتماسك بين أفراد الزاوية إلى حدّ استعداد الفرد للتضحية بنفسه، هذا الشعور الجماعي هو ظاهرة اجتماعية كبيرة تربط الأفراد بعضهم ببعض بحيث امتدت هذه الظاهرة من الماضي إلى وقتنا الحاضر .
- الحداثة وأثرها على الزاوية : حيث لاحظنا عدم تأثير الوسائل الحديثة على منهجية التعليم ولا على البرامج اليومية، فالزاوية تعتمد على النظام التقليدي في التعليم، وتتيح استعمال الآلات الحديثة في أوقات الفراغ فقط.
- كما لاحظنا أيضا تجلّي مفهوم الدّور الاجتماعي: حيث أنّ كل فرد له دور معين داخل المنظومة الدينية والمنظومة البنيوية للزاوية، وهذا ما خلق نوعا من التمايز بين الأفراد في أدوارهم ووظائفهم.

المراجع :

1. الأصفهاني أحمد بن عبد الله،2001، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة: السعادة للنشر
2. الطيب بن محمد ،2013، مسؤولية النخب الدينية والثقافية في الحفاظ على سلم المجتمعات وتضامنها، مجلة التفاهم، عدد 42، 2013، ص.ص: 34-35
3. بن حسن موسى،2021، مجموع المذاكرات والمكاتبات، تح: محمد الطيبي، غرداية: دار صبحي
4. حمودي عبد الله،2010، الشيخ والمريد، تر: عبد المجيد جحفة، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر
5. خطّار سيف محمد،2002، الموسوعة اليوسفية في بيان أدلّة الصوفية، بيروت: الدار العلمية للنشر
6. سعد الله أبو القاسم،2005، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1
7. سعد الله أبو القاسم،1989، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت: دار الغرب الإسلامي
8. شتراوس كلود ليفي،1986، الأسطورة والمعنى، تر: شاكر عبد الحميد، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة،
9. الشطي عبد القادر،2002، السلفية الوفية مذهب أهل الحق الصوفية، الجزائر : دار هومة
10. الشعراني عبد الوهاب، د ت، الطبقات الكبرى، القاهرة: مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

11. صالحي محمد براهيم،2010، الدين بوصفه شبكة دلالية مقاربة كليفورد غيرتز، مجلة إنسانيات، عدد 50، ديسمبر 2010، ص: 29

12. طيبي محمد،« الرؤية الخلدونية للمشيخة الصوفية»، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر2، الجزائر

13. طيبي محمد،« النزعة النقدية لتغيرات الظاهرة السّوسيوصوفية»، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة ابو القاسم سعد الله، الجزائر

14. عبد المعطي عبد الباسط،1981، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، عدد:44، ص: 142-165

15. عدنني إكرام، 2013، سوسيولوجيا الدّين والسياسة عند ماكس فيبر، بيروت: منتدى المعارف

16. غيدنز أنتوني،2005، علم الاجتماع، تر: فايز الصياغ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية

17. غيرتز كليفورد، 2009، تأويل الثقافات، تر: محمد بدوي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة

18. قراش محمد، 2020، سيرة العارفين مناقب وأعلام الزاوية الطاهيرية، برج بوعريريج: خيال للنشر

19. المازوني محمد،2011، وظائف الزاوية المغربية،مدخل تاريخي، https://www.anfasse.org/2010-12-27-01-33-59/2010-12-05-18-31-21/4551-2011-10-23-21-15-42

20. المحواشي منصف،2010، الطقوس وجبروت الرموز قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحول، مجلة إنسانيات، عدد: 49، ص: 15-43

21. مفتاح عبد الباقي،2005، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، الوادي: الوليد للنشر.

22. منديب عبد الغني، 2006، الدّين والمجتمع : دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب ،المغرب، أفريقيا الشرق،